بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم . قال المؤلف – رحمه الله تعالىٰ وغفر له وللشارح والسامعين– :

[وقال أبو العالية : (تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلامُ ، وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا ، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ ، وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ)[1] انتهىٰ .

تأمل كلام أبي العالية – رحمه الله تعالىٰ – هذا ما أجلّه ،واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام، وتفسير الإسلام بالسنة والإسلام ، وخوفه علىٰ أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب ؛ يتبين لك معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة:١٣١] **وقوله :** ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢] ، **وقوله تعالىٰ :** ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:١٣٠]. **وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول والناس عنها في غفلة. وبمعرفته يتبين معاني الأحاديث في هذا الباب وأمثالها ، وأما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله ويظنها في قوم كانوا فبانوا آمِنٌ مكر الله** ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩] **].**

****

(١) مختصراً من كتاب الشريعة للآجري .

الشـرح :

قال المصنف – رحمه الله– : ((**وقال أبو العالية : تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلامُ ، وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا ، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ ، وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ**)) ؛ هنا ساق المصنف – رحمه الله – هذه الوصية العظيمة الجامعة لأبي العالية – رحمه الله وغفر له – وهي وصية من جوامع الوصايا وأعظمها ، وقد أورد المصنف – رحمه الله – هذه الوصية في موضعها ؛ لما ساق – رحمه الله – الآيات والأحاديث في إقامة الوجه للدين حنيفاً والبعد عن الانحراف والأهواء و الضياع والضلال أورد هذه الوصية الجامعة في تحقيق هذا الغرض الذي هو إقامة الوجه للدين ، وهي وصية من جوامع الوصايا وأنفعها .

وهذه الوصية تشتمل علىٰ عدة أمور أوصىٰ بها أبو العالية – رحمه الله – :

- الوصية الأولىٰ : الوصية بتعلم الإسلام ؛ قال: ((**تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ**)) : أي لا يكفي أن يقول الإنسان عن نفسه : " أنا مسلم وأصلي مع المصلين وأصوم مع الصائمين " دون أن يعطي الإسلام حظاً من وقته لتعلمه ومعرفته ومعرفة ما يضاده ويناقضه ؛ فإن عدم المعرفة تؤدي إلىٰ ضعف الدين تارة ، وإلىٰ ذهابه عن الإنسان تارة ، بينما معرفة الإسلام ومعرفة فضائله ومعرفة ما يدخل فيه ومعرفة نواقضه ونواقصه كل ذلك من الأمور المعِينة علىٰ تحقيقه ، لأن تحقيق الإسلام لا يكون إلا بتصفيته وتنقيته من الشوائب ؛ شوائب الشرك ، وشوائب البدع ، وشوائب المعاصي، أما الشرك بالله ﷻ فإنه يناقض أصله، والبدع تناقض كماله الواجب ما لم تكن مكفِّرة، والمعاصي تُضْعِف ثوابه وأجره ، وكلها تؤثر علىٰ الإسلام ونيل فضائله العظام ، ولهذا أوصىٰ أبو العالية – رحمه الله– بتعلم الإسلام أن يعطي المسلم الإسلام حظاً من وقته في تعلمه ومعرفة فرائضه وواجباته وأيضا المحرمات في الإسلام والنواهي ، يجتهد في معرفة المأمور

ليفعله ، ومعرفة المحظور لينتهي عنه ، وشخصٍ لا يعرف المأمور ولا يعرف المحظور كيف يتسنىٰ له الفعل والترك !! وفاقد الشيء – كما يقولون – لا يعطيه .

- الوصية الثانية : العمل بالعلم والمحافظة علىٰ الإسلام الذي تعلمه المسلم وعرفه ؛ فيُتبع التعلم العمل به وهو مقصود التعلم ؛ مقصود تعلم الإسلام العمل بالإسلام ، ومقصود العلم العمل قال علي ﷺ : " يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل " ، فالعلم مقصوده العمل بالتقرب إلىٰ الله ﷻ فيأتي بعد التعلم العمل ، ويكون العمل مبني علىٰ العلم وليس مبنياً علىٰ الجهل ، ومن كان عمله مبنياً علىٰ الجهل سيكثر فيه الخطأ والمخالفة وتدخل عليه البدع، وقد قال عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – : "من عبَد الله بغير علم كان ما يفسِد[٢] أكثر مما يصلح " ؛ لأن عبادة الله ﷻ والتقرب إليه إنما يكون بفعل ما أمر ، وما أمر الله ﷻ به يحتاج إلىٰ علم ؛ أن يتعلم المسلم شرع الله – تبارك وتعالىٰ – ودينه .
- الوصية الثالثة : عدم الرغبة عنه إلىٰ غيره من الأمور التي تناقصه أو تصادمه أو تعارضه أو تخالفه، ولهذا قال – رحمه الله – ((**تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ**)) ؛ أي فإذا تعلمتموه وعملتم به وهذا واضح فلا ترغبوا عنه إلىٰ غيره لا في جانب العلم ولا في جانب العمل؛ لا في جانب العلم بالانشغال عن علم الإسلام بالعلوم القائمة علىٰ الكلام مثلا أو الفلسفة أو نحو ذلك مما يتولد من تعلمها مناقضة الإسلام أو معارضته أو مخالفته ، ولا أيضاً في جانب العمل لا ترغبوا عنه بممارسة أعمال لم تشرع وعبادات لم يأذن الله ﷻ بها ، فهذه الوصية الثالثة ؛ أوصىٰ بالعلم والعمل ثم حذّر من الرغبة عن الإسلام قال : ((**فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ**)) ، وقوله: ((فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ)) يدل عليه ما تقدم في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ

(٢) ما يفسد : أي في عبادته وعمله.

سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ ؛ لا ترغبوا عنه : أي لا تبغوا غيره بدلاً ولا ترضوا بغيره عوَضـاً عنه ، بل هو الدين الحق والدين القويم الذي من حفظه وحافظ عليه سعِد في الدنيا والآخرة .

- الوصية الرابعة : لزوم الصراط المستقيم ؛ قال: ((**وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلامُ**)) ؛ الصراط : الطريق ، والمستقيم : أي غير المعوج ، الذي لا انحراف فيه ، والصراط المستقيم هو صراط المنعَم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، والمنعَمُ عليهم : هم أهل العلم والعمل والثبات عليه إلىٰ الممات . والمغضوب عليه : من يعلم ولا يعمل . والضال : من يعمل بلا علم . والصراط المستقيم لزومه بالاستقامة علىٰ العلم والعمل ، ولهذا لما أوصىٰ بالعلم والعمل وعدم الرغبة عنه أوصىٰ بلزوم صراط الله المستقيم قال تعالىٰ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام:١٥٣] ؛ والمستقيم هو الذي يوصِل إلىٰ الغاية والمطلوب بأخصر وأقرب طريق ، ولا يوصل إلىٰ المقصود بأقرب طريق إلا الطريق المستقيم ، وقد عرفنا من صفات صراط الله ﷻ الاستقامة واليسر والسعة .

قال: ((**فَإِنَّهُ الإِسْلامُ**)) قول أبي العالية – رحمه الله – الصراط المستقيم الإسلام يدل عليه حديث النبي – عليه الصلاة والسلام– الذي سبق الإشارة إليه ، قال ﷺ : ((ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَىٰ جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَىٰ الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَىٰ بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ ، وَالصِّرَاطُ : الْإِسْلَامُ [٣]، وَالسُّورَانِ : حُدُودُ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ : كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ)) وهو حديث

(٣) وهذا هو معنىٰ قول أبو العالية هنا : ((وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَإِنَّهُ الإِسْلامُ)).

حسن رواه الأمام أحمد وغيره ، وأفرده ابن رجب – رحمه الله – في جزء مفرد عظيم النفع كبير الفائدة.

قال : ((**فَإِنَّهُ الإِسْلامُ**)) أي الصراط .

- الوصية الخامسة : **قال ((وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا))** ؛ وهذا فيه الوصية بالاستقامة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت:٣٠] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود:١١٢] ؛ الاستقامة: هي السير باعتدال علىٰ الصراط وبدون انحراف عنه لا يمينا ولا شمالا ؛ وإنما يمضي مستقيما علىٰ صراط الله المستقيم، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ : " لا يروغ روغان الثعلب"، الثعلب عندما ينطلق لا ينطلق مستقيماً وإنما تجده يذهب يميناً وشمالاً ، يميناً وشمالاً ، لا يستقيم في سيره وإنما يروغ ذات اليمين وذات الشمال مرة يمين ومرة شمال ؛ فالذي يسير علىٰ الصراط لا يصلح أن يكون هذا سيره ، مرة ينحرف عن الصراط يميناً ومرة شمالا ، مرة تأخذه الأهواء ومرة تأخذه الشبهات ، فمثل هذا السير لا يصلح من المؤمن الذي يريد لنفسه السعادة ونيل فضائل الإسلام العظيمة .
- قال: ((**وَلا تَحَرَّفُوا عن الصِّرَاطِ يَمِينًا وَلا شِمَالا ، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ**))؛ وهذه وصية سادسة: الوصية بالسنة ولزومها والتمسك بها والعض عليها بالنواجذ وأن يكون المعوَّل عليها والرد إليها والأخذ منها وأن تكون هي المحكَّمة والمؤمَّرة علىٰ النفس، ومتىٰ ما كانت السنة هي المحكَّمة صلح حال الإنسان ، بخلاف ما إذا كانت الأهواء هي المحكمة عنده ،وقد قال بعض السلف : " من أمّر السنة علىٰ نفسه نطق بالحكمة" ، قال مالك – رحمه الله – : " السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق " . فأوصىٰ بسنة النبي – عليه الصلاة والسلام .
- ثم ختم بأمر سابع وهو : التحذير من الأهواء ، قال: ((**وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ**)) ؛ أي احذروها، ابتعدوا عنها وجانبوها وكونوا منها علىٰ حذر .

والوصية بالسنة والتحذير من هذه الأهواء، وصية متكررة عن نبينا عليه الصلاة والسلام، وكثيراً ما يجمع ﷺ في وصيته بين الترغيب في السنة والتحذير من الأهواء، وكان إذا خطب الناس ﷺ قال: ((أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا)) وفي حيث العرباض قال: ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ))(٤) فكثيراً ما يأتي الجمع بين الوصية بالسنة والتحذير من الأهواء والبدعة .

قال: ((**وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ**)) ؛ أي احذروها .

والأهواء أمورٌ تدخل علىٰ قلوب الناس فتعبث بها وتحرفها عن الإسلام ؛ فبدل أن تكون الرغبة في القلب هي الرغبة في الإسلام وأعماله وتفاصيله، تكون الرغبة متجهة إلىٰ أمور أخرىٰ وأعمال أخرىٰ ليست من الإسلام بل ربما مضادة له ومناقضة له، وكل غير مستجيبٍ للرسول ﷺ فيما دعا إليه وأمر به متبع لهواه كما قال ﷻ: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [القصص:٥٠] والهوىٰ إذا وُجد في القلب أعمىٰ الإنسان عن رؤية الحق وأصمه عن سماعه ؛ فالأهواء تعمي وتُصم ، فحذّر – رحمه الله – في خاتمة وصيته من هذه الأهواء.

((**انتهىٰ**)) ؛ أي كلام أبو العالية – رحمه الله – ، وهو موجود في بعض كتب السنة بالإسناد إليه ، ومن المصادر التي فيها هذا الأثر العظيم شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للحافظ اللالكائي – رحمه الله– .

لما أنهىٰ المصنف – رحمه الله – ذِكر هذا الأثر العظيم عقّب بالتنبيه علىٰ فوائد هذا الأثر العظام الجوامع من هذا الإمام الجليل أبي العالية – رحمه الله – .

(٤) رواه أبو داود (٤٦٠٧)

قال المصنف : ((**تأمل كلام أبي العالية – رحمه الله–**)) ؛ تأمل : أي انظر في كلامه بتدبر وتأمل وتأنٍ ولا تقرأه مروراً سريعًا ، لأنك إن قرأته مروراً سريعًا لا تبقىٰ معك الفائدة العظيمة التي اشتمل عليها هذا الأثر ، هذا الأثر كلماته قلائل لو جمعتها إلىٰ بعض لا تكمل ثلاثة أسطر لكنه جامعٌ للخير ، وشأنه كما قال ابن القيم في كلام السلف عموماً " كلامهم قليل كثير البركة ، وكلام الخلف كثير قليل البركة " ؛ فكلامه قليل لكنه مليء بالعلم ، بالخير ، بالإيمان ، بالإسلام ، بالترغيب ، بالترهيب ، بالوصية بالسنة ، بالتحذير من الأهواء ، بالثبات ، بالإستقامة ؛ معاني كثيرة جداً تجدها موجودة في هذا الأثر العظيم .

((**تأمل كلام أبي العالية – رحمه الله – هذا ما أجلّه**)) ؛ وهذا ثناء علىٰ الكلام ووصف له بأنه كلام جليل عظيم متين مليء بالفائدة والنفع .

((**واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء**)) ؛ يقول الشيخ : وأنت تقرأ هذا الكلام أيضا أحضِر في ذهنك الزمان الذي قال فيه أبو العالية هذه الوصية ، هل قالها في القرن السادس؟ السابع ؟ الثامن ؟ التاسع ؟ العاشر ؟ في القرون المتأخرة ؟ استحضر الزمان وأنت تقرأ الوصية .

قال ((**واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام**)) ؛ بعض الناس في الأزمنة المتأخرة إذا حُذّر من الأهواء ومن البدع يتعاظم هذا التحذير ويتكاثره ، ولسان حاله يقول : أين هذه الأهواء حتىٰ نُحذَّر منها !! وأين البدع حتىٰ نُنهىٰ عنها !! ، وربما قال : نحن والحمد لله علىٰ الإسلام والسنة والاستقامة ما عندنا شيء من الأهواء ولا عندنا بدع فلِمَ التحذير منها وما الحاجة إلىٰ النهي عنها !! ، وربما قال بعضهم بهذا الأسلوب " بدعة بدعة !! ما في إلا بدعة " ؛ يتكاثرون التحذير من الأهواء والبدع والنهي عنها ، مع أن أئمة السلف – رحمهم الله – لهم مصنفات خاصة ، أدركوا خطورة البدع فأطالوا في النهي عنها والتحذير منها وجمع الدلائل في بيان خطورتها .

فالمصنف هنا ينبّه يقول : وأنت تقرأ هذا الأثر المشتمل – فيما اشتمل عليه – علىٰ التحذير من الأهواء والبدع والتحذير عن الرغبة عن الإسلام إلىٰ حيث الأهواء والبدع ؛ أيضا استحضِر الزمان الذي قيل فيه هذا الكلام فإن استحضارك للزمان يوجد عندك تأثر أكثر بهذا الأثر ؛ لأنك ستقول إذا كان هذا الإمام قال هذا الكلام في زمانه فكيف بزماننا والناس في كل عام يُرذلون !! فلئن كان الناس في زمانه يحتاجون إلىٰ هذا التنبيه فالحاجة إلىٰ ذلك في زماننا أبلغ وأمسّ .

وأعظم من نهي أبي العالية عن ذلك نهي النبي ﷺ المتكرر في كل خطبة ((وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ)) ، والذي أمامه صحابته الأخيار من المهاجرين والأنصار ؛ أنصار الدين وأعوانه ، ويكرر في كل خطبة ((وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ)) ، ولما أوصاهم وصية ذرفت منها عيونهم ووجلت منها قلوبهم كما في حديث العرباض بن ساريه قالوا ((كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا)) فقال في وصيته : ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، تمسكوا بها وعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ))(٥) ، ولا يزال السلف تتوالىٰ وصاياهم بالتحذير من البدع والنهي عنها وبيان خطورتها وضررها علىٰ الإنسان ، والنقول عنهم في ذلك كثيرة .

استحضار الزمان الذي قيلت فيه هذه الوصية فيه فائدة ولهذا قال المصنف – رحمه الله – :

((**واعرف زمانه الذي يحذّر فيه من الأهواء**)) أبو العالية ما هو زمانه ؟ أبو العالية من طبقة كبار التابعين ،وطبقة كبار التابعين هم من أدركوا كثير من الصحابة ، وأبو العالية رُفَيع بن مُهْران الريَّاحي – رحمه الله – أدرك زمن النبي ﷺ ولم يلقه ولم يسلِم كان علىٰ الشرك ، ولقي أبا بكر الصديق ﷺ وأسلم في خلافته ، وروىٰ عن جمْعٍ من الصحابة منهم عمر وعلي وابن عباس وآخرين من أصحاب النبي ﷺ ، فمنّ الله عليه بالإسلام وبلزوم السنة ، وكلٌ من الإسلام والسنة

(٥) رواه بهذا اللفظ البيهقي في السنن الكبرىٰ ، ورواه أبو داود والترمذي مع اختلاف في بعض الألفاظ .

نعمة عظيمة ولهذا كان يقول كما في شرح الاعتقاد للالكائي وغيره : " ما أدري أي النعمتين عليّ أعظم : إذ أخرجني الله من الشرك إلىٰ الإسلام ، أو عصمني في الإسلام أن يكون لي فيه هوىٰ " ؛ يقول مشيراً إلىٰ عظمة هاتين النعمتين: لا أدري أي النعمتين أعظم !! نعمة الإخراج من الشرك إلىٰ الإسلام ، أو نعمة المحافظة علىٰ السنة مع البعد عن الأهواء والحذر منها ،كل منهما نعمة عظيمة جداً ، فكان كثير التحذير – رحمه الله – من الأهواء والبدع .

والأهواء بدأت تظهر في الناس ، وفي ذاك الوقت – في أواخر عهد الصحابة – بدأت تظهر بذور الفرق المنحرفة الضالة وأنكرها الصحابة وتبرؤا منها ، وتبرأ منها أعلام التابعين وأعيانهم ، وتبرأ منها كل من كان علىٰ نهج السلف وجادّتهم وطريقهم .

الشاهد أن التحذير من الأهواء إذا كان في زمان أبي العالية زمن أكابر التابعين الذين أدركوا الصحابة ولقوا الصحابة وأخذوا عنهم فكيف بالأزمان المتأخرة ؟ فالمصنف ينبه علىٰ هذا ؛ كأنه يقول إذا كان في ذاك الزمان الحاجة ماسة إلىٰ التحذير من الأهواء فكيف بزماننا ؟

قال ((**واعرف زمانه الذي يحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام**)) ؛ وهذه فائدة : إتباع الأهواء رغبة عن الإسلام لأن الأهواء ليست من الإسلام ؛ الإسلام هو شرع الله الذي أمر به وأذِن به ﷻ في كتابه وسنة نبيه ﷺ ، فمن رغب في الأهواء فهو راغب عن الإسلام ،وهذا واضح في كلام أبي العالية المتقدِّم ((**فلا ترغبوا عنه**)) ؛ أي الإسلام ، إلىٰ أين ؟ إلىٰ حيث الأهواء المخالفة له .

قال ((**وتفسير الإسلام بالسنة**)) ؛ "تفسير" معطوفة علىٰ "زمانه" ، يعني واعرف زمانه وتفسيره . هذا أمر آخر اعرِفه ؛ اعرِف تفسيره للإسلام بالسنة ، حيث فسر أبو العالية – رحمه الله – الإسلام بالسنة ولزوم الصراط المستقيم الذي كان عليه الرسول ﷺ وصحابته الكرام ؛ فأيضا اعرِف أن الإسلام هو سنة النبي ﷺ وهي صراط الله المستقيم.

((**وخوفه**)) ؛ أيضا هذه معطوفة علىٰ "زمانه" ؛ اعرِف زمانه ، وتفسيره الإسلام بالسنة ، وخوفه . يخاف علىٰ مَن مِن الأهواء ؟

قال ((**وخوفه علىٰ أعلام التابعين وعلمائهم**)) ؛ لأنه هو من طبقة كبار التابعين ، الطبقة الثانية التي تلي الصحابة ،لما قسّم العلماء أمة محمد – عليه الصلاة والسلام – أو أهل العلم إلىٰ طبقات : الطبقة الأولىٰ الصحابة ، والطبقة الثانية كبار التابعين منهم أبو العالية ، فوصيته هذه وصية لأكابر علماء التابعين وأعلامهم.

((**وخوفه علىٰ أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب**)) ؛ وخروج الإنسان عن السنة والكتاب بالأهواء ، ولعلكم تذكرون حديث معاوية الذي أشار المصنف فيما سبق إليه وذكر طرفًا منه وفيه قول النبي ﷺ ((وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة في الأهواء)) ، ثم قال – عليه الصلاة والسلام– ((إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَىٰ بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَىٰ الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ)) فكان يخاف علىٰ أعلام التابعين وأعيانهم وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب بسبب الأهواء التي تجرف .

وهنا أيضا لك أن تقول واعظًا نفسك وغيرك : إذا كان أبو العالية – رحمه الله – خاف علىٰ علماء التابعين وأعيانهم وأعلامهم من الأهواء أن تجرفهم وتبعدهم عن الكتاب والسنة فكيف بمن هو ليس من العلماء ؟! وكيف بمن هو في الأزمنة المتأخرة ؛لا علم ولا أيضا قُرب زمان ؟! فالخوف علىٰ من كان في زمانٍ متأخر ولا علم عنده بالكتاب والسنة أشد ، أضِف إلىٰ ذلك أن مع قلة العلم وبُعد الزمان عن السنة ثمة مخاطرة بالدين ، تجد الواحد لا يبالي ؛ يسمع لأهل الأهواء لأهل البدع يقرأ لكل أحد يخاطر بدينه .

عبد الله ابن المبارك كان مرةً في مجلس فدخل عليه رجل من أهل الأهواء وأراد أن يقرأ آية من القرآن فقال أخرجوه عني ، قال آية من كتاب الله ، قال أخرجوه عني ، فلما أخرِج قيل إنما أراد أن

يقرأ عليك آية من كتاب الله !! فقال عبد الله ابن المبارك وهو من أئمة السلف وعلماء التابعين : " خشيت أن يطرح في قلبي شبهة تجلجل في صدري حتىٰ أموت " تجلجل يعني تتقلب في قلبي وفي صدري حتىٰ أموت ما أستطيع أن أخرِجها . وكان طاووس يمشي مع ابنه فمروا برجل من أهل الأهواء فأراد أن يتكلم فأدخل طاووس أصبعيه في أذنيه وقال لابنه إبراهيم أدخل أصبعيك في أذنيك ، فلما بدأ يتكلم ذلك الرجل صاحب الهوىٰ التفت طاووس إلىٰ ابنه إبراهيم وقال : "يا إبراهيم أشدُد " يعني أدخل أصابعك جيداً في أذنيك بحيث لا يصل إليك ولا كلمة .

يخافون من الأهواء وعندهم علم وفقه ومعرفة بالسنة ، وفي الأزمنة المتأخرة لا علم ولا فقه ولا معرفة بالسنة وتجده يجلس أمام القنوات الفضائية يسمع لكل أحد ، وتجده يجلس أمام الشبكة العنكبوتية يقرأ لكل أحد ، وتجده يفتح كل مجلة ويقرأ كل كتاب ولا علم عنده !! ولهذا ترىٰ في زماننا هذا وبكثرة يسأل الناس عن بدع ومحدثات يتصلون بأهل العلم ويقولون هل يجوز أن نذكر الله بكذا وكذا ؟ هل يجوز أن نفعل كذا في اليوم عشر مرات ؟ وهي بدع ليس لها دليل ولا لها أصل ، فيُقبِلون علىٰ سماع أشياء يحتاجون بعد ذلك إلىٰ سؤال أهل العلم لتنبيههم علىٰ خطئها ، ثم هل يقتنع بأنها خطأ أو لا يقتنع هذه مسألة ثانية ، بعضهم مع قول أهل العلم له أن هذا الأمر لا أصل له ربما تستهويه البدع وتستميله وتجرفه فلا يقتنع ، وربما قال له مضِل : " دعك من هؤلاء ؛ ما بقي شيء ، كل شيء بدعة ، ما تركوا شيء " ، وقوله "ما تركوا شيء" أي من البدع ، أما من الإسلام ما حذّر منه أهل العلم ولا يحذّرون منه ، وإنما يحذّرون ما خالف الإسلام وما لا دليل عليه في الإسلام وما لا دليل عليه في كتاب الله وسنة نبيه – عليه الصلاة والسلام – ، ودأب أئمة العلم وعلماء السلف في قديم الزمان وحديثه الترغيب في الإسلام الذي هو السنة والتحذير من الأهواء التي هي البدع المحدثات ، ولكن بسبب الجهل وتراكمه علىٰ الناس أصبح التحذير من البدع يعد خطأ ، لِمَ ؟ للرغبة في البدع من جهة ، والرغبة عن السنن من جهة أخرىٰ .

ولهذا يظهر في بعض المجتمعات إقبال شديد علىٰ بدع لا يفرِّط فيها وفي المقابل يفرط في فرائض من فرائض الإسلام ، مثلاً صلاة الفجر لا يحافظ عليها وبعض البدع لا يفرط فيها مهما كان الأمر ومهما كانت ظروفه ومهما كانت أحواله !! ، ولم تُحدَث بدعة ولم تُقم بدعة إلا أميت في مقابلها سنة أو سنن كما نبه علىٰ ذلك أهل العلم . فالمسألة جدُّ خطيرة يحتاج الإنسان إلىٰ أن يجاهد نفسه علىٰ العلم والتعلم والسنة ومعرفتها ، ولا يخاطر بدينه بالسماع لكل أحد والقراءة لكل أحد فهذا نوع من المخاطرة بالدين وقد حذّر منه أهل العلم في قديم الزمان وحديثه .

قال ((**وخوفه علىٰ أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب يتبين لك**)) ؛ أي بهذا التأمل إذا تأملت في هذه النقاط في أثر أبي العالية :

١- إذا تأملت زمانه.

٢- إذا تأملت تفسيره للإسلام بالسنة .

٣- إذا تأملت تخويفه لأعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب .

إذا تأملت في هذه النقاط يتبين لك معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ﴾،وقول إبراهيم: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؛ معنىٰ هذه الكلمة تظهر لك بتأمل كلام أبي العالية لماذا ؟ لأن في الناس خلْق يقول كل واحد عن نفسه أنني مسلم ، وبعضهم ليس عنده من الإسلام إلا اسمه - إلا اسم الإسلام - وبعضهم عنده إسلام لكن عنده أمور مخالفة له ، وبعضهم عنده شيء من أمور الإسلام وعنده أمور تنقض الإسلام ؛ يعبد غير الله ، يشرك مع الله غيره في العبادة ، يستغيث بغير الله ، يطلب المدد من غير الله ، يصرف عبادة لغير الله ، عنده أعمال من أعمال الإسلام وعنده عقائد تهدم الدين، والله يقول : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ [المائدة:٥] ؛ يكون عنده أمور محبطة ، الله جل وعلا قال لرسوله - عليه الصلاة والسلام- : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر/ ٦٥] ، قد يكون عند الإنسان أعمال ولكن عنده أيضا محبطات لها ، فيقول أنت

إذا تأملت في هذه النقاط المتقدمة ستعرف معنىٰ ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾،كأنه يريد أن يقول : ليس الإسلام مجرد انتساب ، ليس الإسلام تدين بما يريد العبد وما يهوىٰ من أعمال ، ليس الإسلام ممارسات كيفما كانت ، الإسلام : استسلام لله بما شرع ؛ استسلام لله : بالإخلاص ، بما شرع : أي بلزوم الكتاب والسنة ، فمن لم يستسلم لله فجعل مع الله شريك ليس بمسلم ، ومن رغب عن دين الله الذي هو في كتابه وسنة نبيه – عليه الصلاة والسلام – فليس بمسلم ؛ الإسلام هو الاستسلام لله بما شرع ﷻ وبما أمر الله ﷻ عباده به .

فيقول : أنت إذا تأملت الكلام المتقدم ستعرف معنىٰ هذه الآية وغيرها من الآيات التي فيها الأمر بالإسلام والاستسلام لله ﷻ ،وستعرف أنه لا يكفيك حظاً ونصيباً من الإسلام مجرد الانتساب أو مجرد أعمال معيّنة وبالمقابل مناقضة ومخالفة للإسلام في العقيدة أو العمل ، أو أن يرغب الإنسان عن الإسلام باتباع الأهواء لا يقيم للكتاب والسنة وزناً ، ويجعل إمامه هواه أو يجعل إمامه متبوعه من أئمة الضلال ودعاة الباطل ، أو يجعل إمامه ذوقه ، أو نحو ذلك من الأمور التي بسببها وبسبب التعويل عليها حدث في كثير رغبة عن الإسلام إلىٰ حيث الضلال والباطل .

قال ((**وقوله**)) أي أيضاً يتبين لك معنىٰ قوله : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ؛ يتبين لك الإسلام الذي وصىٰ إبراهيم ويعقوب عليهما السلام بنيهم به ما هو ؟ وما حقيقته؟ فبالكلام المتقدم يتبين لك ذلك .

((**وقوله تعالىٰ** – أيضاً يتبين لك قوله تعالىٰ – : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾)) ؛ ما هي الرغبة عن ملة إبراهيم ؟ اقرأ قول أبي العالية ((**تَعَلَّمُوا الإِسْلامَ ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُمُوهُ فَلا تَرْغَبُوا عَنْهُ**)) ، ثم فسر الإسلام بالسنة فالرغبة عن السنة إلىٰ الأهواء هذا من الرغبة عن ملة إبراهيم ، لأن ملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة ، لزوم شرع الله ﷻ ، وكم من أقوام يمارسون عبادات وأذكار مهلكة ومضنية وشديدة ومتعِبة ولا يقيمون وزناً للأذكار المشروعة بل لا يعرفونها !! تجده لا

يعرف الأذكار الصحيحة التي تقال في الصباح وفي المساء ثم يقوم في الليل علىٰ قدميه يهز وسَطَه ويقفز قفزاً ويردد كلمات غير مشروعة ،فالعمل منكر والقول منكر وهو في قرارة نفسه يتقرب إلىٰ الله ﷻ ويعبد الله ،وربما يرىٰ نفسه من أحسن العبّاد لله ﷻ بالرقص والهز والقفز وترداد كلمات ليس من شرع الله – تبارك وتعالىٰ – التقرب إلىٰ الله بها ، حتىٰ إن أقواماً هجروا أفضل الكلمات " لا إله إلا الله " وانتقصوا من قدرها وقالوا إن الذكر إنما يكون بالضمير هو ، وقالوا هذا ذكر الخواص أما العوام فلهم لا إله إلا الله ، ويرددون هذا الضمير بصوت واحد جماعات وربما مع قفز ورقص .

حدثني أحد من اهتدىٰ من هؤلاء عن هذا العمل قال : كنا نجتمع في حائط – يعني في بستان – عدد كبير ونردد الضمير "هو " بصوت واحد وقتاً طويلاً ، قال لي هو نفسه بالحرف الواحد : لو كنت وراء الجدار تسمع الصوت ولا ترىٰ شخصنا لم يقع في قلبك شك أن من وراء الجدار ليسوا من بني آدم ،سمىٰ لي حيواناً من الحيوانات ، وهم بزعمهم أنهم في ذكر لله ﷻ.

ثم لا إله إلا الله التي قال عنها – عليه الصلاة والسلام – ((خَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ))[٦] ينتقصونها ، وفي وصية نوح لابنه قال : ((آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ))[٧] ثم يرغبون عنها ويشتغلون بمثل هذه الأمور ؛ هذا كله من الضياع ، وهي ممارسات تفعل وتمارس علىٰ أنها من الدين وأشنع من هذا وأفظع من يجعل دعائه لغير الله طالباً مدداً أو عوناً أو غوثاً من نبي أو ولي أو ملَك أو حجر أو شجر ، أو يقول في مناجاته :

---

(٦) رواه الترمذي (٣٥٨٥) .

(٧) رواه الإمام أحمد .

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

يعني نبي الله – عليه الصلاة والسلام – . هذا كله من ضياع الدين بالرغبة عنه وعن هدي النبي الكريم – عليه الصلاة والسلام – .

أمور كثيرة جداً حذّر منها العلماء ونهوا عنها وبيّنوا خطورتها وهي تتكاثر في الناس وتدْرُج بينهم عندما يجهلون سنة النبي – عليه الصلاة والسلام – فتأتي وصية أبي العالية في مكانها ((**تعلموا الإسلام**)) ولتكن هذه لك قاعدة في تعلمك ، عندما يعلمك معلم أو ينصحك ناصح بأمر ما تأكد هل هو من الإسلام أم ليس منه ؟ فإذا قلت له ما دليل ذلك ؟ وروىٰ لك دليلاً عليه : منام ، أو قال هذا شيء عرفناه بالذوق ، أو قال مثلاً هذا خلاصة أفكارنا أو أفكار مشايخنا إلىٰ غير ذلك من الكلام دعه جانباً ، الإسلام : قال الله قال رسوله – عليه الصلاة والسلام – ، وجادة السلف – رحمهم الله – في تعليم الإسلام هي هذه ؛ يضعون أبواب ويذكرون تحتها آيات وأحاديث ،جادّتهم تعليم الإسلام بتعليم الناس كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

ولا ينجي الإنسان من الهلاك إلا تعلم الإسلام الصحيح المستمد من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأيضاً بفهم السلف ، والمصنف – رحمة الله عليه – هنا يعطيك منهجاً في فهم النصوص ، لم يستقل هو هنا بفهمه ؛ وإنما أورد لك كلام أبي العالية ونبهك علىٰ فوائده ،فالعلم الذي قدّمه لك آيات وأحاديث ثم أوضح لك معناها من كلام السلف ، وهذا هو المنهج الصحيح ؛ أخْذ العلم من الكتاب والسنة علىٰ فهم السلف الصالح . بعض الناس يدخل في فهم الكتاب والسنة وفهم بعض الآيات وفهم بعض الأحاديث بتخرصات أو بخرافات ترِد علىٰ عقله ويحاول أن يركّبها فيجعلها فهماً للقرآن أو ربما سماها فتح ، أحد المصنفين كتب كتاباً حول القرآن سماه " الفتوح الإلهية " ويذكر فيه أشياء من الخرافات .

فهذه الأمور ينبه المصنف علىٰ الحذر منها حتىٰ وأن سميت ما سميت وزُينت ؛ يحذر منها ويكون في فهمه للآية والحديث مستنِداً إلىٰ فهم السلف الصالح ،وهذه جادّة مباركة فيها السلامة وفيها الخير وفيها البركة .

والمصنف لما ذكر لك الآيات في إقامة الوجه للدين والأحاديث في هذا المعنىٰ أعقب ذلك بهذا الأثر لأحد كبار التابعين وهو أبو العالية – رحمه الله – ثم نبهك علىٰ شيء من فوائده العظيمة .

قال : ((**وأشباه هذه الأصول الكبار**)) يعني أن ذِكره لهذه الآيات الثلاث مثال ؛ وإلا فإن أثر أبي العالية يعينك علىٰ فهم القرآن والسنة الفهم الصحيح ، وليس أثر أبي العالية فقط بل الآثار التي عن التابعين وأتباعهم وأئمة العلم المتقدمين تعينك علىٰ فهم كلام الله وكلام رسوله – عليه الصلاة والسلام – .

قال ((**وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول**)) ؛ الإسلام والإيمان وأركان الإيمان وأركان الإسلام هذه الأصول الكبار العظيمة ، معرفتها وتعلمها والسير فيها علىٰ جادةٍ سوية وهديٍ قويم لا يكون إلا بالرجوع إلىٰ فهم السلف الصالح ، أما إذا استقل الإنسان بفهمه فإنه قد يدخل عليه أنواع من الانحرافات يراها سداداً وهي انحراف ، قد قال الإمام أحمد : " إِيَّاكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي مَسْأَلَةٍ لَيْسَ لَكَ فِيهَا إِمَامٌ "[٨] يعني من السلف –رحمهم الله – ، لأن فهمهم أسدّ ، وقربهم من زمن النبوة وصفاء القلوب وحسن العلم والسلامة من الأهواء ، ما كانت الأهواء تصل إليهم ، حفظهم الله ﷻ منها ، ويحافظون علىٰ السلامة من سماعها ، لا يسمع إلا السنة ، ولا يتيح فرصة لصاحب هوىٰ أن يتكلم عنده ، هل يقارن فهم شخص بهذه الصفة بشخص ذهنه مشوش وأفكاره مضطربة ويسمع يعني لكل أحد ثم يريد أن يبين معاني الإسلام وذهنه مليء بهذه التشوشات؟! هل يقارن أمثال هؤلاء بأئمة السلف في صفاءهم ونقائهم وزكائهم وحرصهم وعبادتهم !! جمعوا

(٨) نقله ابن القيم عن الإمام أحمد في (إعلام الموقعين عن رب العالمين) .

بين العلم والعمل ، أبو العالية علمه هذا أخذه برويّة وبأناة وبتؤدة حتىٰ قال في ترجمته : " أذهب إلىٰ الشخص لأتعلم عنه فأنظر في صلاته " ، فجمعوا علمهم هذا بوقت وبأناة وعن أئمة وأكابر فهل يقارن علمهم بعلم غيرهم ؟ فإذاً فهم السلف ضرورة ولهذا الله ﷻ قال في القرآن : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء:١١٥] سبيل المؤمنين هو هذا ، ونبينا – عليه الصلاة والسلام – قال: ((عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي))[٩] وقال : ((خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي))[١٠] والأحاديث في هذا المعنىٰ كثيرة ، ومالك – رحمه الله – يقول : ((مالم يكن دينـًا زمن محمد ﷺ وأصحابه فليس اليوم دينا)) ، سيأتي معنا أثر ابن مسعود لما رأىٰ بعض الذين يذكرون الله بصفة محدثة قال : ((أما إنكم جئتم ببدعة ظلما أو فقتم أصحاب محمد علما))[١١] فمثل هذه الأمور تبين لك ضرورة الارتباط بفهم السلف الصالح – رحمهم الله– في كلام الله وكلام رسوله – عليه الصلاة والسلام – .

قال: ((**والناس عنها في غفلة**)) ؛ أي هذه الأصول وهذه المعاني العظام الناس عنها في غفلة بسبب الجهل وتراكم الأهواء وتنوع الفتن وطرقها للناس من مجالات كثيرة ووسائل عديدة .

قال: ((**وبمعرفته يتبن معاني الأحاديث في هذا الباب وأمثالها**)) ؛ يعني أمثال هذه الأحاديث ، وهذا –كما قلت – ينبهك علىٰ قاعدة مفيدة وأصل شريف في العلم وهو : العناية بفهم السلف لكلام الله وكلام رسوله – عليه الصلاة والسلام – ، ومن أنواع التفسير عند أهل العلم : تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالحديث، وتفسير القرآن بالمأثور ، ولهذا تقرأ في ابن جرير وابن كثير وغيرها من كتب التفسير بالمأثور عقب كل آية ينقل لك في الغالب عن ابن عباس وعن

(٩) رواه بهذا اللفظ الطبراني في مسند الشاميين ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة .

(١٠) رواه البخاري (٢٦٥١) ، ومسلم (٢٥٣٣) .

(١١) رواه ابن وضاح في كتاب البدع بلفظ ((لقد فضلتم أصحاب محمد علما ، أو جئتم ببدعة ظلما)) .

مجاهد وعن أبي العالية وعن غيرهم معاني الآيات ، وترىٰ في تفسير الآيات كلام مختصر جدا لكنه فيه الكفاية والغنية ، وبعض التفاسير المطوّلة التي لم تنهج نهج السلف قيل عن بعضها " فيه كل شي إلا التفسير " ، يعني مجلدات كبار وبزعم من كتبها يفسر القرآن ولما نظر فيه العلماء قالوا هذه الكلمة " فيه كل شيء إلا التفسير " ، وتجد بعض الناس يرغِّب في هذه التفاسير المتأخرة ويحذِّر من فهم السلف ويقول هذه تواكب العصر ، ولو قال تواكب البدع لكان أوفق، وتلك تواكب السنن . وعندما يشتغل الإنسان بهذه التفاسير يذهب عن حقيقة الإيمان وعن حقيقة ما دل عليه القرآن إلىٰ أن يسبح بأفكاره وخياله وعقله وفكره ويورِد تصورات يجعلها هو نفسه فهماً للآيات ، بمعنىٰ أنه تصوّر أولا ثم أراد أن يفهم القرآن علىٰ خلاف طريقة السلف، السلف – رحمة الله عليهم – كانوا يأتون للقرآن متجردين عن الأهواء وعن غيرها ويريد أن يفهم القرآن، أما الخلف يأتي وعنده تصورات معيّنه ثم يريد أن يفهم الآيات علىٰ ضوء تصوراته فيلوي المعاني إلىٰ حيث يريد ، وهذا ما يسمىٰ بتحريف المعاني كالذي كثر في كتب الخلف ، ووجدت تفاسير مبنية علىٰ تحريف وتأويل في صفات الله في أسمائه في الأحكام وما يتعلق باليوم الأخر وأمور أخرىٰ كثيرة وُجد فيها مثل هذه الأشياء .

فالمصنف – رحمه الله – ينبه علىٰ هذه الفائدة العظيمة وهي ضرورة وأهمية الرجوع إلىٰ فهم السلف وعلم السلف رحمهم الله وهو كلام كما قدَّمت عن ابن القيم قليل كثير البركة .

قال: ((**وأما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمن مطمئن**)) ؛ لاحظ هذه الكلمة مهمة جداً في التنبيه علىٰ خطأ متكاثر في الناس .

((**أما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله**)) ؛ يعني مثلاً يقرأ ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ يقول : " الحمد لله مسلم وأصلي وأنا في عافية من الرغبة عن الإسلام ، لست من هؤلاء " ، وتجده يحيط به الجهل وتحيط به البدع وتحيط به الخرافات

وتحيط به الأهواء والأوهام وفي الوقت نفسه آمن ومطمئن ، ويقرأ الآيات ويمر عليها مرات ولكنه يقول هذه لا تعنيني ، وإذا قرأت عليه هذه الآيات وأمثالها ونُبه علىٰ الخطأ الذي عنده في مخالفته لهذه الآيات يغضب ، وغضبه مبني علىٰ امتلاء قلبه بالهوىٰ ، وإلا لو أن الإنسان قلبه راغب في السنة إذا حُذر من الخطأ يُقبل لا يدبر .

قال: ((**أما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله ويظنها في قوم كانوا فبانوا**)) ؛ يعني يقول : هذه الآيات لا تتحدث عنا ، ربما هذه خاصة بالمشركين الذين بُعث فيهم النبي – عليه الصلاة والسلام– هذه لا تعنينا ولا تخصنا ، تجده يستغيث بغير الله وإذا قيل له ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ [الأحقاف:٥] يقول لا ؛ هذه لكفار قريش ليس لنا بها علاقة ، ورب العالمين يقول : ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر:٤٣] ، إذا وجد الكفر في أي وقت ووُجد الشرك في أي زمان وبأي أسلوب ومن أي شخص فالحكم واحد ، وقل هذا في عموم الآيات ، والسلف بل الأنبياء كانوا يخافون علىٰ أنفسهم ، إبراهيم الخليل وهو الذي كسر الأصنام بيده ذكر الله ﷻ دعائه في القرآن قال : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦] ، والنبي ﷺ قال للصحابة: ((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ))(١٢) وقال عليه الصلاة والسلام لهم : ((للشرك فيكم أخفىٰ من دبيب النمل))(١٣)، فإذا كان الإنسان آمن من الشرك وآمن من البدعة وليس خائفاً ولا يقول بصدق " اللهم أعذني من الشرك ، اللهم أعذني من البدع "، آمن ويظن أنه برئ من هذه وسالم منها هذا علىٰ خطر ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩] ؛ أفأمنوا مكر الله أن يكون ما يكون عليه نوع من الاستدراج له ؛ إما توسعة في المال أو توسعة في الرزق أو أشياء من هذا القبيل ، ثم هو يقيم علىٰ

(١٢) رواه الإمام أحمد في المسند .

(١٣) رواه أبو يعلىٰ الموصلي في مسنده .

شركيات ويقيم علىٰ بدع وعلىٰ ضلالات ما أنزل الله بها من سلطان ثم في قرارة نفسه يرىٰ أن عمله أصح الأعمال وعباداته أزكىٰ العبادات ؛ هذا علىٰ خطر إذا كان علىٰ هذه الصفة .

وهنا ملاحظة أشار إليها الحسن البصري –رحمه الله – في بعض كلامه قال: " المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمْن " ؛ المؤمن يحسن في العمل والاتباع ولزوم السنة ويجتهد في الطاعات والعبادات وهو خائف ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٠] ، والآخر المنافق يسئ بفعل الشركيات بفعل الضلالات وهو آمن يرىٰ نفسه من أحسن الناس وأصلحهم حالا . ابن أبي مليكة من أجلة التابعين أدرك عدداً من الصحابة يقول – رحمه الله – : " أدركت أكثر من ثلاثين صحابياً كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه " ؛ صلاح في العمل وخوف ،وغيرهم فساد في العمل وضعف في العمل وقصور في العمل وأمن ، يرىٰ نفسه من أصلح الناس وأزكاهم وهو مضيّع في أعماله وفي عباداته وفي أموره ، فهذه مصيبة، وصلاح الإنسان بأن يعود بنفسه إلىٰ إتباع الرعيل الأول من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان ، يقرأ كلامهم ، يتأمل في سيرهم يجد فيها صلاحاً وزكاءً وقدوةً وقد قيل :

كرر عليّ حديثهم ياحادي فحديثهم يجلو الفؤاد الصادي

نحن مشكلتنا الآن نقرأ لكل أحد إلا سيرة السلف ، سيرة السلف نحن في غربة عن قراءتها ومعرفتها ، ، ثم يريد الإنسان لنفسه أن يبقىٰ علىٰ سلامة في صحة إسلامه وسنته وإتباعه .

قال رحمه الله :

[وعن ابن مسعود ﷺ قال : ((خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللهِ ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ سُبُلٌ عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ وقَرَأَ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ رواه أحمد والنسائي] .

****

الشرح :

ثم ختم المصنف – رحمه الله – هذا الباب العظيم ((باب فأقم وجهك للدين حنيفا)) بهذا الحديث ؛ حديث ابن مسعود لأنه يبين لك المسار الصحيح ويحذرك من المسارات المنحرفة .

فيقول ابن مسعود : ((**خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللهِ**)) ؛ يعني خط خطاً مستقيما ليس فيه اعوجاج ولا انحراف ثم قال هذا سبيل الله .

((**ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ**)) ؛ انتبه هنا إلىٰ فائدة لطيفة ؛ خط خطاً مستقيماً بدون الخطوط ثم قال هذا سبيل الله ، ثم بعد ذلك خط في جنبه خطوط عن يمينه وعن شماله وقال في وصفها ((**هَذِهِ سُبُلٌ عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**)) ؛ أي أنك إذا أسلمت واستقمت ومشيت علىٰ الصراط سيأتيك علىٰ يمينك وعلىٰ يسارك علىٰ مد الصراط إلىٰ أن يتوفاك الله سيأتيك باستمرار مفترقات في الطرق .

((**عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**)) ؛ وهذه السبل ترجع في جملتها إلىٰ سبيلين :

١– سبيل شهوة . ٢– وسبيل شبهة .

إما شبهات تفسد العقائد والعلوم ،أو شهوات تفسد الأعمال والسلوك، وهي متنوعة ، فالسبل بتنوع ما يتعلق بالشبهات وما يتعلق بالشهوات، فهذه تأتي الإنسان مادام ماضياً علىٰ صراط الله

المستقيم ؛ إلىٰ أن يموت وهي لا تزال تأتيه ، حتىٰ في لحظاته الأخيرة حتىٰ في ساعات الاحتضار لا يزال الشيطان حريصاً علىٰ الإنسان وقد أيضا يرافده ويعاونه من شياطين الإنس من يحضرون عند الميت ليثبُت علىٰ الكفر أو ليثبت علىٰ الضلال أو ليثبت علىٰ البدع ، فيحتاج الإنسان في سيره يعني في تحقيق معنىٰ الآية ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم:٣٠] أن لا يميل لاشمال ولا يمين ، بل يظل مستقيماً علىٰ صراط الله المستقيم .

قال: ((**عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**)) ؛ هل المراد هنا بالشيطان شياطين الجن ؟ أم أنه يشمل شياطين الإنس ؟ والله ﷻ قال: ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢] فليس خاصاً بهذا ، ويدخل تحت قوله : ((**عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ**)) قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المتقدم في الباب نفسه : ((دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا)) ؛ في النار ، فهؤلاء الدعاة قد يكونون من شياطين الجن وقد يكونون من شياطين الإنس وهم خلطاء الشر وقرناء الفساد ، ولا يلزم أن يكون الواحد منهم قريناً للإنسان ملازماً له ، الآن أصبحت الخلطة لا تختص بالمجالِس من الأشخاص بل بوسائل الاتصال ، وهذه وسيلة في العصر للخلطة أمام القنوات الفضائية أمام الشبكات العنكبوتية والآن يحصل في زماننا بسبب وجود آلات الفساد يحصل خلوات غير شرعية يتورط فيها كثير من الناس ، يكون وحده في غرفة وأمامه القنوات وأمامه تلك الشبكات العنكبوتية وفيها من وسائل الانحراف في الشبهة والشهوة الشيء الكثير ، ثم يلتفت الشخص في الغرفة التي هو فيها وإذا الباب مغلق ولا أحد من الناس يراه فيكون في خلوة مع أدوات الفساد التي تعبث به ، يجلس أمامها وهو مطمئن أنه لا أحد من الناس يراه ورب العرش يراه .

إذا خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

وربما لو فُتح عليه الباب وهو في تلك الخلوة لاستحيا من الناس أن يروه وهو يشاهد ما يشاهد وينظر إلىٰ ما ينظر إليه ، والنبي ﷺ قال: ((اسْتَحْيُوا مِنْ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ))(١٤) استحي ممن خلقك الذي يراك ويطلع عليك في خلوتك وفي جلوتك في سرك وفي علانيتك ((اتق الله حيثما كنت))(١٥) كل هذا من ضعف الدين ورقته ومن مخاطرة الناس بأديانهم ، ثم ينشأ عن مثل هذه الخلوات تحلل في الأخلاق في العقول في الأفكار في العبادات في الأعمال ، تبدأ حال الإنسان تتبلد ، حتىٰ إن بعضهم مع طول مجالسته أنكر قلبه بسبب هذه الأمور .

فالدعاة علىٰ أبواب جهنم والسبل التي علىٰ كل سبيل منها شيطان في زماننا هذا اتسعت ، واستجدّت في هذا الزمان أمور لم تكن موجودة قبل ، أصبح الإنسان في بيته وفي غرفته فساد العالم كله يصل إليه ، وكانوا قديماً قبل وجود القنوات هذه قبل وجود الوسائل الموجودة قبل وجود وسائل الاتصال الحديثة الكفار سبيلهم إلىٰ الوصول إلىٰ عقول المسلمين أو أفراد المسلمين ضعيف جدا ، من أين له أن يصل إلىٰ عقل المسلم ؟ انظر قرىٰ المسلمين في بلدانهم من أين يصل الكافر إلىٰ عقله؟ ماله إلا طريق واحد أن يأتيه ، وإذا دخل عليهم في قريتهم طردوه ما أحد يستمع له ، لكن الآن بسبب وسائل الاتصال الحديثة والقنوات وغيرها أصبحت سموم العالم وحثالات البشر وزبالات العقول وعفن الكفار كل هذه الأمور تأتي وتصب ، وتجد الأولاد والنساء وغيرهم يسمعون ، ثم وضعت لهم قواعد توسع لهم قاعدة السماع لكل أحد ، يعني مثلا يقول لماذا الإنطوائية ؟ يأتون بعبارات غليظة شيئاً ما وتزاحم عقل الإنسان ويريد أن ينفك منها فلا يكون إنطوائيا فينظر للإباحية مثلا حتىٰ لا يكون إنطوائيا ، أو ينظر لشبهات أهل البدع وأهل الضلال ، أو يقول مثلا لماذا التقوقع ؟ يأتون بعبارات غليظة يضربون بها قلب الإنسان وعقله ثم يفتح له أبواب

---

(١٤) رواه الترمذي (٢٤٥٨) .

(١٥) رواه الترمذي (١٩٨٧) .

يسمع لكل ناعق وينظر لكل أحد حتىٰ لا يكون بزعم أولئك متقوقعاً أو منطوياً أو منعزلاً أو متحجراً ، يقول لماذا التحجر ؟ يأتون بعبارات قوية جدا ، ومن يخاطَب بهذه العبارات ضعيف العلم ضعيف الإيمان ضعيف الفهم فيريد أن لا يكون متقوقعا ولا متحجرا ولا من أهل هذه الأوصاف ، فيبدأ يفتح كل شيء وينظر إلىٰ أن تتخلخل العقائد والأعمال ، فهذه خطورة بالغة جداً يحتاج من أراد أن يقيم وجهه للدين حنيفاً أن يجاهد نفسه في البعد عن هذه الأمور وأن يحفظ نفسه من الوقوع في هذه الأشياء .

قال : ((**وقَرَأَ** ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾))؛ اللهم اجعلنا من عبادك المتقين، وأصلح لنا شأننا كله يا رب العالمين ، وأعذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأعذنا من البدع والأهواء ، واهدنا اليك صراطاً مستقيما، اللهم إنا نسألك الثبات علىٰ الحق والعزيمة علىٰ الرشد ، ونسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك ، ونسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ، ونسألك قلباً سليماً ولساناً صادقا ، ونسألك من خير ما تعلم ونعوذ بك من شر ما تعلم ونستغفرك مما تعلم إنك أنت علام الغيوب .

والله اعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين .